الجواري والنساء، وكان هذا الأمر قاسماً مشتركاً بين كثير من ملوك الطوائف[١].

ومما لا شك فيه أن وجود مثل هذه الأمراض الخُلُقية تعدُّ من أكبر معاول الهدم التي تقضي على الأمم والجماعات حتى الأسر والأفراد؛ إذ هي من سنن الله ـ عز وجل ـ في هذا الأمر: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾ [**الإسراء**: ١٦].

إنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ   فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبُوا

وقد فهم هذه الحقيقة ابن خلدون حيث عقد فصلاً في مقدمته بعنوان: (من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة، وبالعكس). وقد جاء في هذا الفصل قوله: «إذا تأذن الله بانقراض المُلك من أمَّة حَمَلَهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتُفتقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم... واستقرئ ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه»[٢].

حياة الترف:

ولو حاولنا استقصاء ما قيل عن حياة الترف في مجتمع ملوك الطوائف لطال بنا المقام لكثرة ما دوّن عن هذا الموضوع، ولتعدد صوره وأشكاله، وتفننهم في التعامل معه؛ مما يدل على إيغالهم فيه وغرقهم في مستنقع رذائله وأوجاعه،

---

(١) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٦، وقد تمخّض عن حياة الترف والمجون ثروة أدبية تمثلت في الشعر والنثر الذي قاله كثير ممن عشق تلك الحياة؛ مما أثرى الجانب الأدبي في ذلك العصر، وقد اعترف بذلك عدد من المؤرخين المسلمين والنصارى، انظر:

Menendez Pidal: Poesia, arabe Poesia Europes Coleccior austral No 19 Madrid, 1975 pp 94.

Jose Hagerty: Al-muctamid: Poesia Barcelona 1979.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ٢٥٢ـ ٣٥٣.

ولكن حسبنا هنا إشارة تغنينا ونماذج تهدينا إلىٰ ما جرَّته عليهم تلك الانحرافات الخُلُقية من مآس وأمراض كانت عاملاً رئيساً لما أصابهم من ضعف معنوي. ومما يذكر هنا عن حياة الترف ما ذكره المؤرخون من أن (اعتماد الرميكية) زوجة المعتمد ابن عباد رأتْ ذات يوم بإشبيلية نساءَ البادية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين، فقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النسوة! فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصيّرها جميعها طيناً في القصر، وجعل لها قرباً وصالاً من إبرسيم، وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين. ويقال: إنه لما خُلع وكانت تتكلم معه مرة، فجرىٰ بينهما ما يجري بين الزوجين، فقالت له: والله ما رأيت منك خيراً قط. فقال لها: ولا يوم الطين؟! تذكيراً لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، فاستحيتْ وسكتتْ(١).

كان هذا مثالاً واحداً علىٰ ما حلّ بدولة بني عباد من ترف وبذخ، وقد سارت علىٰ هذا النهج دولة بني ذي النون التي بلغت في البذخ والترف إلىٰ الغاية كما يقول المقري(٢)، وقد ذكر كدليل علىٰ هذا ما عرف عندهم بـ(الأعذار الذنوني) الذي كان يضرب به المثل عند أهل المغرب؛ إذ أصبح عندهم كـ(عرس يوران) عند أهل المشرق(٣).

وقد ترك لنا ابن حيان وصفاً لوقائع ذلك الحفل الكبير الذي أقامه المأمون احتفالاً بختان حفيده يحيىٰ، وفيه من صور الترف والبذخ ما يدل علىٰ أن بني ذي النون قد استرسلوا في هذا الأمر(٤)، كما بالغوا ـ أيضاً ـ في بناء القصور الفخمة

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٤٠.
(٢، ٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٠.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٣ ـ ١٤٩.

التي كانت سبباً في هدم الدين والدنيا، وتسلُّط الأعداء من النصارىٰ، كما يقول ابن بسام(١)، وقد عدَّ الأموال التي أنفقت في هذه الأعمال بأنها من السحت(٢).

وقد سَلَك مبارك ومظفر العامريان في إشادة البناء والقصور، والتباهي في عليَّات الأمور، مسلك المبذرين، وقد حذا نهجهما كتَّابهما ووزراؤهما وكثير من رعاياهما، حيث هاموا في ترَّهات مضلة، وأعمال متصلة، لاهين عما كانت فيه الأمة حينذاك من محن وأخطار(٣)، كما ذكر ابن عذارىٰ أنهما بلغا في هذا الأمر منتهاه؛ حيث انغمسا في النعيم إلىٰ قمم رؤوسهما، وأخلدا إلىٰ الدعة، وسارعا في قضاء اللذة حتىٰ أربيا علىٰ من تقدم وتأخر(٤).

ومما يذكر في ميدان حياة الترف التفنن في بناء القصور والمبالغة في الإنفاق عليها، والسهر والجهد في متابعة بنائها، وكان الواحد منهم حينما لا يظهر البناء بالشكل الموافق لرغبته، ولا يسد ما لديه من فراغ، ويملأ ما عنده من طموح؛ يصبح ويضحي وهو مكفهر الوجه، شارد الذهن كأنه قد أصابته فاجعة «لضياع ثغوره، وتشعث أموره، وامتشار الشرك بإزائه وظهوره»(٥). ولعل موقف المأمون ابن ذي النون من عريف بناء قصره بطليطلة دليل واضح علىٰ تأصل حياة الترف في نفوس أولئك القوم(٦)، ومما يدل علىٰ هذا الأمر أيضاً أن ابن بسام أفرد حديثاً خاصاً لما تناهىٰ إليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة(٧).

---

(١) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٥-١٤٦.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦١.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ١٦١.
(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٦.
(٦) المصدر السابق، ص ١٤٨.
(٧) المصدر السابق، ص ١٤٧.

كانت هذه نماذج لحياة الترف في عصر ملوك الطوائف، وهي بلا شك تعطي دليلاً واضحاً على ما وصل إليه ذلك المجتمع من إيغال في تلك الحياة، بل إنها تدلنا دلالة واضحة على تفننهم في هذا المجال، بل حرصهم عليه مهما كانت النتائج المتمخضة عنه، ولهم في هذا الميدان وغيره من المجالات المشابهة له أخبار مأثورة كما يقول ابن حيان(١).

الخلاعة والمجون:

أسهب المؤرخون في الحديث عن هذا الأمر؛ إذ ذكر ابن حيان أن قرطبة حاضرة المسلمين هناك أصبحت مرتعاً خصباً لمزاولة الرذائل؛ حيث كان ملوك الطوائف إذا احتاجوا إلى شيء من الملهيات يرسلون رسلهم إلى قرطبة للبحث والتنقيب عن الأوصاف التي يريدونها من الجواري، وأنه في شوال سنة ٤٤٢ هـ ورد على أبي الوليد ابن جهور في قرطبة رسول المظفر ابن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار واشتراهما له(٢).

كما ورد على أبي الوليد ابن جهور بقرطبة من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب فيه جارية عوّادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة(٣).

وقد اشتهر المعتمد ابن عباد بأنه كان «له كلف بالنساء وخلط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد نظرائه»، كما أن المعتمد ابن عباد كان مولعاً بالنساء حيث خلع ثمانيمائة امرأة من أمهات الأولاد، وجواري المتعة، وإماء الخدمة(٤).

---

(١) ابن عذارى، ج٣، ص ١٥٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٢. (نقلاً عن ابن حيان).
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٢.
(٤) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٣، ٥٣.

وكان مجاهد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية ذا شخصية مزدوجة، فطَوْراً كان ناسكاً، وطوراً يعود خليعاً فاتكاً لا يستتر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شراب وبطالة، ولا يأنس بشيء من الحقيقة، له ولغيره من سائر ملوك الطوائف في ذلك أخبار مأثورة(١)، أما هذيل بن خلف بن زرين صاحب شنتمرية فقد كان من أرفع ملوك الطوائف همة في اقتناء القينات حيث اشترىٰ جارية بثلاثة آلاف دينار(٢).

هكذا غرق أولئك القوم في أوحال الفحش والرذيلة، ومستنقع المجون والخلاعة، وقد استغل هذا الأمر بعض الوزراء والموظفين الذين رغبوا أن يستبدوا بالحكم والسلطان، فأشغلوا حكامهم بإغراقهم في الملذات، وإشغالهم بالنساء اللائي كثرن، وأخذت الكثيرات منهن تطمح في ولاية من تربِّيه من أبناء السلطان ليكون لها الحظوة والغلبة(٣)، ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين أن إشغال الحكام بالنساء كان أمراً مألوفاً عند وزراء دولة بني بلقين في غرناطة(٤).

أما شرب الخمر في قرطبة وغيرها من بلدان ملوك الطوائف فيبدو أنه كان أمراً لا غرابة فيه في ذلك العصر؛ ولهذا لما حاول أبو الحزم ابن جهور منعها مدحه الشعراء ومنهم ابن زيدون، وعبد الرحمن بن سعيد المصغر(٥)، كما ذكر المقري أن وادي إشبيلية لا يخلو من جميع أدوات الطرب، وأن شرب الخمر فيه غير منكر(٢).

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٥٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٠٨.
(٣) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٦.
(٤) مذكرات الأمير عبد الله، ص ٨٥.
(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٨٨.
(٦) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ١٩٩.

ولعل القارئ لدواوين الشعر في ذلك الوقت يدرك كيف أن وصف الخمر والتغني بها كان أمراً مألوفاً عند كثير من شعراء ذلك العصر حتىٰ قال أحدهم[(١)]:

جرت مني الخمر مجرى دمي   فجل حياتي من سكرها

ولم يكن هذا الأمر قاصراً علىٰ فئة معينة من الناس، بل كان كثير من الناس يقضون لياليهم أيقاظاً يجتمعون علىٰ الكؤوس حتىٰ الصباح[(٢)].

وكان للطرب والغناء نصيب عند أولئك القوم، فقد كانوا يتفاخرون بكثرة آلاته ومدىٰ جودتها حيث يقولون: عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك[(٣)].

ولو حاولنا استقصاء ما ذكره المؤرخون حول الطرب والغناء في عهد ملوك الطوائف لطال بنا المقام، ولكن قد يكون من المناسب أن نكتفي بذكر ما قاله أحد الباحثين المعاصرين حول هذا الموضوع حيث قال: «فانتشرت مجالس الغناء وأصبح هذا الفن بجملته جزءاً من ثقافة الشعب حتىٰ لنجد الفلاح في حقله، والعامل في مصنعه، والفقير في كوخه، لا يقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء»[(٤)].

وقد بدأت أعراض تلك الأمراض التي حلت بالمجتمع الإسلامي في الأندلس في تلك الفترة تظهر عياناً، فقد استخف بعض الناس بالدين، وتجردوا من الأخلاق والقيم الإسلامية، ولم يعد هناك وازع من دين أو ضمير، حيث انتشر العهر بين النساء والبنات، بل إن بعض زعماء ذلك العصر أباح لرجاله محارم

---

(١) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٦٩.
(٢) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات، ج ١، ص ٣٠٠.
(٣) العذري، نصوص عن الأندلس، ص ١٨.
(٤) محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٣٢١.

الناس، فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن، والبنات من آبائهن، بل إن أحدهم زنىٰ بزوجة أبيه وبعمته غير مبال بحرمة أو مرتدع بوازع من دين أو سلطان(١)، وقد ذكر ابن حزم أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة في الأندلس، عشق غلاماً نصرانياً فوضع له كتاباً في تفضيل التثليث علىٰ التوحيد تقرباً إليه(٢)، كما يذكر ـ أيضاً ـ أنه في ذلك العصر قد عظم البلاء فهان القبيح ورق الدين حتىٰ رضي الإنسان بالفضائح والقبائح مقابل وصوله إلىٰ مراده وشهوته، وقد حكىٰ لنا كثيراً من القصص حول هذا الموضوع، منها ما ذكره حول «عبيد الله بن يحيىٰ الأزدي المعروف بـ(ابن الحريري)؛ فإنه رضي بإهمال داره، وإباحة حريمه، والتعريض بأهله طمعاً في الحصول علىٰ بغيته من فتىٰ كان علقه»(٣).

كما ذكر ابن بسام أن ابن السقا(٤) وزير بني جهور كان رجلاً عَهِر الخلوة لزهده في النساء، وكلفه بالغلمان، حيث اتخذ داراً آخر مدته للخلوة بهم؛ فكان لا يخدمه فيها ولا يحف به غير خاصة غلمانه، كما كان لا يأذن لأحد من طبقات الناس بالدخول إليه فيها؛ ولهذا أكثر الناس القول في هذه الدار وسمّوها: (دار اللذة)(٥).

ومن العجب أن هؤلاء القوم علىٰ الرغم من وقوعهم أسرىٰ لملذاتهم

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣١٣.
(٢) طوق الحمامة، ج ١، ص ١٣.
(٣) المصدر السابق، ص ١٣٠.
(٤) هو أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيىٰ المعروف بابن السقاء، كان في أول أمره فقيراً كابد من شظف المعيشة، وكان يسكن مع إخوته بدار صهره بجوار المسجد الجامع في قرطبة، لكنه لما تولىٰ الإمامة أثرىٰ علىٰ حساب الآخرين، حيث يذكر ابن حيان أنه لما تحمل الأمانة جعلها أسفل رجله، كما تحول إلىٰ جُرذ للسرقة والخيانة؛ حيث ابتنىٰ القصور المنيعة. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٣٨ ـ ١٤٠).
(٥) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وشهواتهم فإنهم كانوا وهم في تلك الحال لا يعفون عمن يشعرون بأنه يسيء إليهم، أو يهدد سلطانهم؛ فالمعتمد ابن عباد حينما غنت له إحدىٰ الجواري فوقع في نفسه أنها تعرّض بالمرابطين ألقاها في النهر فهلكتْ(١).

وكان ممن غرق في تلك المستنقعات المنتنة، ولاَّدة بنت المستكفي الأموي، فقد أعلنت وقوعها في هذا الأمر، حيث كتبت بالذهب علىٰ طرازها الأيمن(٢):

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه فيها

وكتبت علىٰ الطراز الأيسر:

وأمكّن عاشقي من صحن خدّي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

هذه صور من مظاهر الضعف في الجانب الخُلُقي التي حلت بالمجتمع الإسلامي في عهد ملوك الطوائف، وقد انعكست آثار ذلك علىٰ قوة المسلمين فأضعفتها؛ ذلك لأن النصارىٰ كانوا يراقبون واقع المسلمين فلما رأوا أنهم قد غرقوا في مستنقع الفحش والرذيلة، وأنهم أصبحوا يعيشون في حياة طابعها الخلاعة والمجون، عدّوا ذلك من أهم المثالب التي يأخذونها عليهم، ومن أحسن الفرص للإطاحة بهم، وقد بيّن هذا الأمر القمبيطور في خطابه إلىٰ أعيان بلنسية، ومما جاء فيه: «من كانت له قضية عادلة فليأت إليَّ متىٰ شاء، وسأستمع إليه، فإني لا أحتجب عنكم، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أولو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم»(٣).

هكذا زالت هيبة ملوك الطوائف من نفوس أعدائهم، وكُسر حاجز القوة

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٥.
(٣) راجع طاهر مكي، ص ٤١٧.

بينهم بسبب تردي أخلاقهم وانغماسهم في حياة المتع والـلذائذ، ولم يكن هذا الشعور عند النصارىٰ فقط، بل إنهم هانوا حتىٰ عند إخوانهم المسلمين لما عرفوا حقيقتهم، وقد بيّن هذا الأمر السلطان يوسف بن تاشفين (٤٦٥ـ٥٠٠ هـ)؛ حيث كان يردد في مجالسه قوله: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم علىٰ أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم، وإيثارهم الراحة، إنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة تُسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم طوال هذه الفتنة إلىٰ المسلمين، ولأملأنها عليهم ـ يعني الروم ـ خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما هَمُّ أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته»[1].

ومما لا شك فيه أن هذا الضعف الذي مني به ملوك الطوائف قد جعل مسلمي الأندلس يصابون بخيبة أمل؛ لأنهم أدركوا أن زمام الموقف أصبح بيد النصارىٰ المتربصين، وقد عبَّر عن هذا الشعور الشاعر الأندلسي ابن العسال حينما قال:

حثُّوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلطِ
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسطِ
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياةُ مع الحياتِ في سفطِ؟![2]

ولم يكن هذا الشعور قاصراً علىٰ المسلمين بل تعداهم إلىٰ العدوّ النصراني الذي أدرك أن حصون المسلمين الداخلية قد ضعفت، وأن الفرصة أصبحت مهيأة له لدخول الثغور والحصون الخارجية؛ ولهذا وضع خطة حربية تتناسب مع ذلك

(١) المراكشي، المعجب، ص ٢٤١ـ٢٤٢.
(٢) ابن سعيد، رايات المبرزين، ص ٥٠، المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٣٥٢.

الواقع، وقد أبان هذه الاستراتيجية الحربية فرناندو بن شانجة ملك جليقية أثناء حصار النصارىٰ لمدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ، حيث قال لأهلها الذين خرجوا يطلبون الصلح معه لما أعيتهم المقاومة: «ما أجيبكم إلىٰ سلم، ولا أعفيكم من حرب؛ فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نُصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلىٰ عدْوَتكم - يعني بلاد المغرب - واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم»(١)، كما أبانها ألفونسو السادس - ملك قشتالة - حيث قال لرسول المعتمد ابن عباد حينما قدم إليه: «كيف أترك قوماً مجانين تسمَّىٰ كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم. . . وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا علىٰ المغاني والعيدان! وكيف يحل لبشر أن يقر منهم علىٰ رعيته أحداً، وأن يدعها في أيديهم سدىٰ»(٢).

كما قال أحد قادة النصارىٰ بعد إحدىٰ المعارك التي خاضها مع المسلمين: «كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة؛ فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم»(٣)، وقد أكد هذا الأمر الكاتب النصراني (انخل بالنثيا) فقد ذكر أن ملوك الطوائف وَهَن أمرهم بسبب ما حل بهم من ترف وبذخ، وسعي للمطامع والنزوات(٤).

وقد صرَّح بتلك النيات والخطط وزير ألفونسو السادس ششنندو (مسنندو)؛

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٨٢.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠.
(٤) انخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، (ترجمة حسين مؤنس)، ص ٧٧ - ٧٨.

حيث يذكر الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته أن هذا الوزير النصراني قال لمسلمي غرناطة قبيل سقوط مدينة طليطلة بأيدي النصارىٰ سنة (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م): «إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتىٰ غلبهم العرب وألحقوهم بأنخس البقاع جليقية، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتىٰ إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف»[١].

وقد كان انشغال الظافر ابن المعتمد ابن عباد حاكم قرطبة ووزيره (ابن مرتين) باللهو والشراب سبباً في دخول ابن عكاشة مدينة قرطبة وقتله إياهم[٢].

كان هذا عرضاً لبعض ما سجله المؤرخون عن حياة الترف والمجون والخلاعة في المجتمع الإسلامي في عصر ملوك الطوائف، ومما لا شك فيه أن هذا التحول في حياة الناس في ذلك العصر يعد منزلقاً خطيراً، وسابقة لها ما بعدها من النتائج والآثار كما رأينا، ويبدو أن من الأسباب القوية في إيغال أولئك القوم في تلك المستنقعات الموبوءة هو ما منوا به من ضعف معنوي، إلىٰ جانب ما تعرضوا له من نكبات نفسية، وشعور بالقلق؛ مما جعلهم يتوقعون أن في مقارفة مثل تلك السلوكيات مخلصاً لهم من تلك المعاناة والأوجاع النفسية، أو ساتراً ما هم فيه من ضعف وحيرة.

ويضاف إلىٰ ما سبق ما ذكره ابن عذارىٰ من أن المعتضد ابن عباد والىٰ حرب ابن الأفطس صاحب بطليوس عدة شهور من سنة ٤٤٢ هـ؛ فغير بلده، كما دمر عمارات واسعة، وأفسد غلاتها، وأوقع في رعيته المجاعة الطويلة، فلما انتهىٰ ابن عباد من تدويخ بلاده ورجع إلىٰ إشبيلية، أرسل المظفر ابن الأفطس رسولاً إلىٰ قرطبة ليشتري له وصائف ملهيات يأنس بهن نافياً بذلك الشماتة عن نفسه،

(١) التبيان، ص ٧٣.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ١٥١.

ولم تكن له عادة بمثل هذا الأمر، وقد وجد له رسوله صبيتين ملهيتين عند بعض التجار فاشتراهما بغالي الثمن(١)، وقد تعجب الناس «مما شهر به نفسه من البطالة - أيام الحروب - المحرمة لإظهار النساء على فحول الرجال العاقدة الآزرة على ما كان يدعيه لنفسه من الأدب والمعرفة»(٢).

هكذا كان أولئك القوم يلقون بأنفسهم في أوحال الترف، ومستنقعات الرذيلة، ظناً منهم أن في تلك الأعمال خلاصاً مما هم فيه من ضعف ونكسة نفسية، وما علموا أنهم بهذا العمل كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإلى جانب ضعفهم في ميادين الجهاد ومقاومة الأعداء، فإن هذا التحرر من الأخلاق والعادات والقيم قد أدى إلى ضعف دولهم، وتراخي سلطانهم، فقد أصبحوا أسرى لملذاتهم وشهواتهم حيث وصف أحدهم تلك الحال بقوله(٣):

لعمرك إني بالمدامة قوّال ... وإني لما يهوى الندامى لفعّالُ
قسمت زماني بين كدّ وراحة ... فللرأي أسحار وللطيب آصالُ
فأمسي على اللذات واللهو عاكفاً ... وأضحي بساحات الرئاسة ختالُ
ولست على الإدمان أغفل بغيتي ... من المجد إني في المعالي لمحتالُ

ويقول الآخر:

علل فؤادك قد أبلّ عليل ... واغنم حياتك فالبقاء قليلُ
لو أن عمرك ألف عام كامل ... ما كان حقاً أن يقال طويلُ
أكذا يقود بك الأسى نحو الردى ... والعود عود والشمول شمولُ
لا يستبيك الهم نفسك عنوة ... والكأس سيف في يديك صقيلُ
بالعقل تزدحم الهموم على الحشا ... فالعقل عندي أن تزول عقولُ(٤)

(١) البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨، ٢٣٢.
(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٦.
(٤) المراكشي، المعجب، ص ١٥٢.

وكان هاجس المتعة والملذات الجنسية يسيطر على عقول أولئك القوم حتى وهم في ساحات الوغى وميادين القتال، فالمعتمد ابن عباد حينما كان يحكم شلب أرسله أبوه ليحتل مالقة، لكنه في الطريق إليها انشغل في اللهو والسرور بصحبة مغنيات كان يلتقطهن أثناء مسيره إليها، فلم يستعد لمنازلة الخصوم فهُزم، فلما عاد إلى أبيه - وكان غاضباً عليه - أرسل إليه قصيدة جاء فيها:

لم أُوتَ من زمني شيئاً ألذُّ به ... فلست أعهد ما كأس ولا وتَرُ
ولا تملّكني ذلٌّ ولا خفر ... ولا سبى خلدي غُنْجٌ ولا حَوَرُ
هو المدام التي أسلو بها فإذا ... عدمتها عَبَثتْ في قلبي الفِكَرُ[(١)]

ومما لا ريب فيه أن هذا الانحدار في ميادين الفحش والرذيلة كان من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف المادي والمعنوي لأولئك القوم الذين أصبحوا أسرى لملذاتهم وشهواتهم، وقد أدرك خطورة مثل هذا المنزلق الخطير المسلمون الأوائل؛ حيث كانوا يحُذِّرون رعاياهم وجنودهم من مقارفة المعاصي، أو الوقوع في متاهات الذنوب، ومن ذلك ما روي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في رسالته التي وجهها إلى قادة جيش المسلمين في معركة اليرموك حيث خاطبهم بقوله: «ولن يؤتى مثلكم من قلة، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها»[(٢)].

وكذلك ما روي عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في رسالته التي كتبها إلى سعد بن أبي وقاص، ومن معه من المسلمين يأمرهم فيها بتقوى الله، والاحتراس من الذنوب والمعاصي؛ لأنها هي العدو الأول لهم، ومما جاء في رسالته: «وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله»[(٣)].

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٦، هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٣١٨.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٩٢ - ٣٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ١٥٣.